البعد التداولي للاستفهام في الخطاب السجالي
خطاب النقائض نموذجا

د.مكلي شامة
جامعة تيزي وزو-الجزائر

تاريخ الإرسال:2018/12/20 تاريخ القبول:31-12-2018 تاريخ النشر:01-02-2019

ملخص باللغة العربية: يمثل شعر النقائض صورة متميزة من صور الخطابات السجالية بين الشعراء، وهو خطاب حجاجي بامتياز، حيث يوظَف فيه أساليب حجاجية متعددة ومتنوعة بقصد الإعلاء من شأن الأنا والحط من شأن الآخر، بحثا عن التفوق اللغوي والثقافي والمعرفي. ومن بين الأدوات البلاغية الموظفة لهذا الغرض نجد "الاستفهام" الذي يعد وسيلة مثلى وناجعة في مثل هذه الخطابات، والذي يشتغل بطرق متعددة تفرضها الوضعية التخاطبية وسياق الحوار وهدف الخطاب. لذا سنحاول في هذا المقال تقصي البعد البلاغي للاستفهام في شعر ثلاثي النقائض (جرير، والفرزدق، والأخطل).

الكلمات المفتاحية: الخطاب- السجال- الاستفهام- البلاغة.

The Deliberative Dimension Of Questioning in Rhetorical Discourse

Abstract : The Rhetorical Dimension of the Tri-verse Poetry Issue Poetry of contradictions (Opposition) is one of the distinctive images of the casted and sparring discourses between poets. It is a protest with an authoritative speech by excellence, in which he employs the methods of contestation,multiple and diverse methods of opposability in order to uphold the “ego” and vilify the “other”, in search of linguistic, cultural and cognitive superiority. Among the rhetorical tools employed for this purpose, we find a "question" which is an ideal and efficient way of these discourses, which operate in a variety of ways. They are dictated by the rhetoric, the context of dialogue and the purpose of such discourse. So in this article, we will try to investigate the rhetorical dimension of the question in three-dimensional poetry (El Djarir, Farazdaq, and Alakhtal.

Key words : polemic-rhetorical-discourse- Questioning.

مقدمة: يعد الاستفهام من الآليات البلاغية التي تشتغل في الخطاب بكيفيات خاصة، فمنطلقه السؤال عن شيء مجهول، غير أنه يمكنه أن يخرج عن الإطار الذي يشتغل فيه ليشتغل بطرق أخرى ويؤدي مقاصد أخرى تحددها وضعية الخطاب ومقصديات المتخاطبين، لذلك ارتأينا البحث عن البعد البلاغي للاستفهام في شعر ثلاثي النقائض.

والأمر الذي دفعنا إلى البحث عن هذه المسألة هو الخصوصية التي يتميز بها خطاب النقائض، باعتباره خطابا سجاليا يسعى كل طرف من أطراف الخطاب فيه الإعلاء من شأنه والحط من شأن الآخر، فالخطاب السجالي في أبسط معانيه "منتوج ثقافي يشتغل على ثقافة الاختلاف بين الأنا والآخر في سياق حواري تفاعلي وضمن قواعد تواصلية معيّنة تفرضها طبيعة الحوار، وقواعده؛ فهو يعبّر عن وجهتي نظر مختلفتين في سياق لغوي ما تتسابق كل واحدة منهما للتفوق على الأخرى فيه"[1] وسعي الذوات المساجلة للتفوق على بعضها يفتح بابا للخروج عن أخلاقيات الحوار وأدبياته، ما يسمح للغة من ممارسة عنفها، وكسر القواعد التخاطبية التي حاول التداوليون إرساءها لتنظيم الحوار وضبط أبجدياته.

هذا التحرر والعنف اللغوي الممارس في الخطاب السجالي يجعل بعض الأدوات اللغوية تخرج عن الإطار الذي خصصت له لتؤدي أفعالا لغوية غير مباشرة يحددها سياق الخطاب، والاستفهام كأداة لغوية وبلاغية يمكنه أن يؤدي وظيفة أصلية كما يمكنه أن يخرج عنها، وهذا يدفعنا إلى البحث عن طرق اشتغال الاستفهام في شعر ثلاثي النقائض.

في مفهوم الخطاب السجالي: الخطاب السجالي وجد بلا شك منذ الأزل؛ لأن ثقافة الاختلاف عند الإنسان موجودة دائما وأبدا، لذلك قال دومينيك مانقونو-

Dominique Maingueneau أن صفة السجالية في الخطاب لا يؤتى بها من نظام خارجي ولكن الخطاب يختص على الدوام بنزعة سجالية.[2] ونلمسه منذ العهد الإغريقي فناً قائما بذاته يرتبط بالنزاع القولي وبفن الكلام. فمصطلح السجال Polémique في أصله الأجنبي يعني "حرب كلامية" وهو مشتق من الكلمة الإغريقية Polémikos التي ترتبط بالحرب.[3] لذلك جاء في قاموس أوكسفورد للمصطلحات الأدبية بأنه "ما يكتب للهجوم على رأي أو سياسة، وغالبا ما يستخدم في الخطابات الدينية أو السياسية، وأحيانا في الفلسفة والنقد."[4]

أما في أصله العربي وكما جاء في لسان العرب "فالمساجلة: المُفاخرة بأن يَصنع مثل صنيعه في جَري أو سقي...وتساجلوا أي تفاخروا؛ ومنه قولهم: الحربُ سجالٌ"[5] فهذه المفاهيم جميعها تعكس صفة العنف في معنى الخطاب السجالي، فهي حرب كلامية بالمعنى الاستعاري. ويستعمل السجال باعتباره اسما وصفة في الوقت نفسه:

أما **باعتباره اسماً:** فهو يعني "تتال يتفاوت طولا لنصوص تتعارض في مسألة أو موضوع نقاش أو شبكة مسائل مترابطة"[6].

أما **باعتباره صفة:** فهو يشير "إلى نظام في الخطاب يكون فيه للكلام مقصد دحضّي"[7] فيكون بذلك "خطاب استنقاص أي إنّه يهاجم هدفا ويضع في خدمة هذا القصد العملي المهيمن كامل جهاز الأساليب البلاغيّة والحجاجيّة."[8]

وعليه لا يمكن اعتبار الخطاب السجالي مجرد خطاب كغيره من الخطابات الأخرى، وإنّما هو إلى حد ما فعل قولي؛ لأنه يُنجَزُ به، بالضرورة، فعلان لغويان آخران هما: فعل متضمن في القول، وآخر تأثيري. فيمكننا القول في هذه الحالة أنه

خطاب لا ينجَز إلا لاشتغاله كرد فعل على خطاب سابق أو كخطاب مثير، فهو خطاب انفعالي واستجابي في الوقت نفسه.

تتميز المساجلات بخاصية التجدّد، ويترتب عليها تكوّن ذاكرة سجاليّة- بتعبير منغونو- بالصّراعات السّابقة، وهذا ما يقرّبها من المناظرة باعتبارها نقاش مفتوح قابل للتجدّد في مجرى التاريخ، وقد لا يفضي النقاش فيها إلى شيء، بمعنى أن النقاش يصل إلى "عدم التفاهم المتبادل"، وهذا ما يقرب المساجلات من جهة أخرى من المجادلة التي تعني "مقابلة الحجة بالحجة وتكون بحق وباطل، وأصله الخصومة الشديدة"[9]

وانطلاقا من هذا سلّمنا بأن النقائض هي خطابات سجالية، فكل مقومات الخطاب السجالي متوفرة فيها، وهي:

-أنها تحمل حمولة دلالية سالبة (شتيمة) موجهة نحو الخصم.

-تخضع الاستراتيجيات الخطابية فيها إلى عمليات انتقائية تسمح للباث استئثار الوضعية العليا، وجعل الخصم (المتلقي) في وضعية دنيا.

-تعكس المعارضات والايديولوجيات ووجهات النظر والآراء المختلف حولها إزاء مجموعة من القضايا.

-تعكس الأبنية الدلالية لهذه الخطابات رؤية المتخاطبين للعالم، وطرق تأويلهم له.[10]

الاستفهام كفعل لغوي تأثيري.

الاستفهام كما نظّر له البلاغيون العرب هو "طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإذا كانت تلك الصورة وقوع النسبة بين الشيئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور."[11] أما أدواته فهي كثيرة وهي: الهمزة، وهل، وما

ومن وأي وكم وكيف وأين وأنى ومتى وأيان. أما محمد بن علي الجرجاني فقد حصرها في عنصرين، فالاستفهام يكون إما بحرف، أو اسم يتضمن معناه.

أما الحرف فيكون بالهمزة، وهل فـ"الهمزة بالأصالة، وهل بالنيابة عنها"[12] كقول قائل: هل قام زيد؟ أقام زيد، فحذفت الهمزة، وأقيم هل مقامها.[13]

وتأتي الهمزة إما لطلب التصديق أو التصور. فالتصديق يأتي لـ"إدراك وقوع النسبة أو لا وقوعها"[14] وفي هذا علم بوجود معنى الحكم والإسناد، غير أن السائل يطلب تعيين الحكم، فيكون بالإيجاب أو السلب.

يمكننا أن نتوقع أن يأتي تعيين الحكم في كل خطاب جاء وفق هذه الصياغة اللغوية فيكون فهمنا لها واحد، غير أن واقع الاستعمال يقول بغير ذلك، وهذا ما أكّده التداوليون حين قالوا أن التداولية هي دراسة اللغة في الاستعمال، فقولهم هذا يدلّ على أن القول المفصول عن سياقه يدل على شيء، والقول الموضوع في سياقه قد يدل على شيء آخر مخالف تماما للدلالة الأولى، وهذا ما يؤكده قول الفرزدق التالي وهو يساجل جريرا:

ألسنا بأصحاب يوم النّسار وأصحاب ألوية المربد

ألسنا الّذين تميم بهم تسامى وتفخر في المشهد[15]

فمضمر القول –وفق الاتجاه التداولي– في هذين البيتين هو الفخر بالذات الجمعية المتمثلة في قبيلة الشاعر، ومعنى التعظيم وهو "الخروج بالاستفهام عن معناه الأصلي واستخدامه في الدلالة على ما يتجلّى به المسؤول عنه من صفات حميدة كالشجاعة والكرم والسيادة والملك وما أشبه ذلك"[16]

وتحمل هذه الأبيات أيضا معنى التقرير وهو "حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتا ونفيا لغرض من الأغراض"[17] وما يؤكد ذلك ورود أداة الاستفهام في

بداية كل بيت، حيث يشترط في هذه الحالة أن يكون المقرّر به تاليا همزة الاستفهام.

يحاول الشاعر إرغام المخاطب بالإقرار بأن الغلبة لهم في يوم النّسار، ويقر بأن فعل الفوز كان منهم وليس من غيرهم. وقد تجلى هذا أيضا من خلال البيت الثاني؛ حيث يطلب من مخاطبه الإقرار أيضا بأنهم أحسن قبيلة تفتخر بها تميم، مقارنة ببربوع، كقبيلة من قبائل تميم أيضا. وخلف احتجاج الفرزدق بواقعة يوم نسار حجاج سلطوي، لأن هذه الاستراتيجية هي استراتيجية سجالية منبثقة من تأكيد الشاعر وحرصه على الرفع من قيمته الفردية والجمعية، في مقابل الحط من قيمة الخصم، فالبيت الثاني وإن كان يضمر فخرا، إلا أنّه يضمر هجاء في الوقت نفسه، فقوله **ألسنا الذين تميم بهم تسامي وتفخر** كدعوى صريحة، فإن الدعوى المضمرة هي أنها لا تفتخر بغيرها، فقبائل تميم كثيرة ومن بينها قبيلتي الفرزدق (نهشل)، وجرير (يربوع)، فإذا افتخرت بالأولى فهي لم تفتخر بالثانية بالضرورة.

قد يذهب فكر البعض إلى القول بأن الدعوى الأولى لا تثبت الثانية بالضرورة فقول الشاعر أن تميم تفخر بنهشل لا يعني بالضرورة أنها لا تفتخر بغيرها من القبائل التميمية، لكننا نقول أن سياق السجال يجعل من كل قول يصدر عن أي مساجل لا بد وأن يهدف إلى بناء الذات وهدم الآخر. ونجد في مثل هذه الخطابات ازدواجية في المعنى (معنى ونقيض المعنى)، والصوت أيضا، أنه كل قول يصدر عن شعراء النقائض في نقائضهم، يمثل رد فعل لخطاب سابق.

فالفهم الاستجابي الفاعل لما تمّ سمعه يولّد ردة فعل مباشرة، وهو إنجاز فعل قولي بمثابة صدى للخطاب الأول، ولا يبقى مجرد فهم استجابي أصم. وهذا ما

يعني أن خلق استجابة تتمثل في إنجاز فعل لفظي ملموس يُعرب فيه الآخر عن رفضه لخطاب الأول، مستثمرا ما أمكن من حجج حتى يتفوق عليه.

يقول الفرزدق يهجو جريرا:

فإنك إلاّ ما اعتصمت بنهشل، لمستضعف يا ابن المراغة ضائع
إذا أنت يا ابن الكلب ألقتك نهشل ولم تك في حلف فما أنت صانع؟
ألا تسألون النّاس عنّا وعنكم، إذا عظّمت عند الأمور الصنّائعُ
تعالوا، فعدّوا يعلمِ الناسُ أيُّنا لصاحبه في أولّ الدّهر تابعُ
وأيُّ القبيلين الذي في بيوتهم عظام المساعي واللُّهى والدّسائعُ
وأين تقضّي المالكان أمورها بحقٍّ، وأين الخافقات اللوامعُ؟[18]

يظهر هذا المقطع الشعري رفض الذات المساجلة (الفرزدق) الاشتراك والتوافق مع الذات الأخرى (جرير)، فإذا كانت أحداهما في منزلة كانت الأخرى على نقيض المنزلة الأولى، وما يعكس ذلك قوله الشاعر: ألا تسألون الناس **عنّا وعنكم**، فعدّوا يعلم الناسُ **أيُّنا**، وأيُّ **القبيلين**. فكلها صيغ تدلّ على رفض نظام المواقع بين المتخاطبين، فالاستفهام الوارد في هذا المقطع جاء لينجز به المتكلم فعلا لغويا غير مباشر وهو الإنكار، فالاستفهام عند علماء الأصول قسمان: استفهام الإنكار واستفهام التقرير.

" 1- استفهام الإنكار: ومعناه، حسب الزركشي: أن ما بعد الأداة منفي، ويجيء لأغراض كتعريف المخاطَب أن ذلك ممتنع عليه، وله نوعان... إبطالي وحقيقي. الأول (الإنكار الإبطالي) يكون ما بعد أداة الاستفهام غير واقع... وفي الثاني (الإنكار الحقيقي) يكون ما بعد الأداة واقعا وفاعله معلوم.

2- استفهام التقرير: ومضمونه حملُكَ المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عندك."[19]

فقد استند الشاعر في ذلك إلى تصورات المجتمع، وبنى حججه -وإن كانت مضمرة- وفق ما سلّم به الناس وآمنوا به، ووفق أفكار شائعة وقناعات مشتركة بين الأنا الجمعية وهي تميم كقبيلة تمثل المركز بين قبائل عربية أخرى، إذ لا يمكن أن نتصور قبيلة تحتل مكانة في المجتمع العربي القديم دون اعتراف الآخر الجمعي بها.

لذلك كانت معاني التفاخر والتباهي، أو السخرية والتحقير في النقائض مهيمنة على غيرها من المعاني الأخرى، ومن ذلك-أيضا- قول الفرزدق:

ألم تر أنّا بني دارم زرارة منّا أبو معبد[20]

فالشاعر في هذا السيّاق صرّح بحجة تسهم في بناء مشروعيّة خطابه، وإلغاء خطابات منافسه، ليسيطر من ثم على الموقع الاجتماعي الرفيع، وهو مقصد من مقاصد الخطاب. قال أبو عبيدة "إنّما نصب بني دارم على الفخر والمدح، ولم يجعل ذلك خبرا لأنّ، وجعل خبر أنّ في قوله: ألم تر أنّا زُرارة منّا"[21]

وعندما تستفرد الأنا بالموقع الذي تنتمي إليه فإنها تحاول تعجيز الآخر بلوغ مبلغها وهذا ما يخرج الاستفهام أيضا إلى معنى التعجيز، كما يظهر ذلك في قول الفرزدق لجرير:

فادفع بكفك- إن أردت بناءنا- ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحل؟[22]

فهدم عز الفرزدق مرهون بزحزحة جبل ثهلان من موضعه وهو ما يعني أن الخطاب يضمر معنى تعجيزيا، وتقدير الكلام: أنت يا جرير لا تستطيع بلوغ

مكانتنا الإجتماعية والشعرية، فذلك مرهون بزحزحة جبل ثهلان الكثير الهضبات. وقد يتجلى في هذا السياق دور سلطة الخطاب المرتبطة دوما بخطاب السلطة.

كما يقول أيضا في نفس السياق:

أين الذين بهم تسامي دارما أم من إلى سلفي طهية تجعل

أو قوله:

كم من أب لي يا جرير كأنّه قمر المجرّة أو سراج نهار

فالفرزدق في هذين البيتين لا يسأل عن المكان أو العدد وإنما يفخر ويتباهى بأسرته وتدل (كم) في البيت الثاني على الكثرة، أما البيت الأول فتأويل أداة الاستفهام (أين) الواردة فيه هو الفخر والنفي، فطلب العلية أمر لا يتأتى إلا في ضوء لغة يغلب عليها الإقصاء والرّفض. وهي استراتيجية يستعملها كل مساجل في خطابه من أجل الانتقاص من قيمة الآخر، حيث يقول جرير للفرزدق:

ألم تر أولاد القيون مجاشعا يمدّون ثديا عند عوف مصرّما[23]

يهجو جرير الفرزدق بهذا البيت وذلك بمقابلته بين صورة العون الفارغ الذي يمد به مجاشع، وصورة الثدي الذي جف لبنه (ضرعه)، فهو عون لا جدوى منه. وهذا ما يعني خروج الاستفهام عن معناه الأصلي وهو طلب العلم بالمجهول، إلى أغراض بلاغية يحدّدها المقام.

يقول الفرزدق في نقيضة أخرى:

هلا سألت بني تميم أينا يحمي الذمار، ويستجار فيمنع
من كان يستلب الجبابر تاجهم ويضرُّ، إذ رفع الحديث، وينفع
هلا عددت فوارسا كفوارسي يوم ابن كبشة في الحديد مقنع
أين الّذين بسيف عمرو قتلوا، أم أين أسعدُ فيكم المسترضع؟ [24]

فالأدوات: أين، وهلا، ومن، لا يراد منها السؤال عن المكان، أو التصديق، أو التصور، ولا تعيين العقلاء، وإنما الغرض منها هو الافتخار. ما دام السياق الخطابي يفرض على الذات المتلفظة الإعلاء من شأنها والحط من شأن الآخر، فالخطاب السجالي يفترض تعاقدا بين طرفي الخطاب يحملان وجهتي نظر مختلفتين ومتناقضتين، تسعى كل واحدة منهما التغلب على الأخرى. فالفرزدق في هذا السياق، مثلما في السياق السابق، يفتخر ببني مجاشع رهطه ويُعلي من شأنها مقابل الحط من قبيلة يربوع رهط جرير. وهذا كله لتوريط المخاطب باستعمال حجج تضع الآخر موضع النقص والدونية.

ومن ذلك أيضا قول جرير يردّ على البعيث:

فهلاّ سألت النّاس إن كنت جاهلا بأيامنا يا ابن الضّروط فتعلما؟[25]

وعندما تأتي الهمزة –في الواقع البلاغي– لطلب التصور فيأتي لـــ"إدراك غير النسبة (...) في طلب تصور المسند إليه (...) أو في طلب تصور المسند."[26] ومن الأمثلة التي يستشهد بها بعض النحاة قول القائل في (الحالة الأولى): أدبس في الإناء أم عسل، فالمطلوب هو تحديد ما بالإناء (أدبس أم عسل). أما من أمثلة الحالة الثانية فقول القائل: أفي الخابية دبسك أم في الزق. فالمطلوب هو تعيين مكان الكائن (الدبس) أفي الخابية أم في الزق.[27] والحرف الذي يجيء لطلب التصور هو "الهمزة" فـــ"تكون لطلب التصور وتعيين الفاعل أو المفعول"[28]. ولكن هل ورود همزة الاستفهام في الخطاب تدل بالضرورة على طلب التصور، أو تعيين الفاعل أو المفهوم على اعتبار السائل يجهلهما؟

يمكننا القول أن هذا ليس دائما هو المقصود بإيراد همزة الاستفهام في الكلام، وإنما سلطة تعيين المعنى المراد ترجع إلى مقاصد المتكلمين، ولنأخذ هذا المثال من النقائض وهو قول جرير يهجو الفرزدق.

أثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت بهم طهية والخشابا[29]

فهمزة الاستفهام في هذا البيت جاءت للسؤال عن التصور، وهو تردد وشك في تعيين أحد الشيئين عن طريق ذكر المعادل بعد (أم)، والشك وقع في المفعول به، حيث يسأل جرير الفرزدق تحديد طرفي المعادلة أهما ثعلبة أم رياحا، وتقدير البيت: أظلمت ثعلبة فعدلت بهم طهية؟ والاستفهام في هذا السياق أيضا ليس بريئا، رغم أن السياق اللغوي يدل على التردد في تعيين أحد الشيئين، والذي يعكس عدم العلم، بل المقام هنا يدل على الفخر، حيث يفتخر جرير بثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك زيد مناة بن تميم، ورياح من يربوع بن حنظلة، وهما من رهطه؛ لأنه ابن كليب بن يربوع. وبالمقابل يهجو الفرزدق؛ لأن طهية ابن مالك بن حنظلة من رهطه، وكذا الخشاب وهي قبائل من أبناء مالك ابن حنظلة، والفرزدق من بني دارم بن مالك بن حنظلة.

الخطاب السجالي ومبادئ التأدب.

الخطاب السجالي خطاب عنف إلى حد كبير، ما يعني أنه يوظف من الآليات ما يجعل الأنا تتفوق على الآخر، أو خطاب الأنا يتفوق على خطاب الآخر، عندما يرتبط الأمر بمجال القول الشعري، حتى لو استدعى الأمر استعمال العنف اللفظي أو خطاب العنف، الذي يعكس خروجا عن آداب الحوار–كما أسلفنا القول– وهذا يدفع بالاستفهام إلى الانزياح عن فعله التساؤلي، ومن ثم انتظار الجواب، إلى إنجاز فعل لغوي مضاعف التحقير والتصغير/ مقابل الافتخار.

قد يفرض سياق الخطاب ووضعية المتخاطبين تجاوز بعض قوانين الخطاب التي تبنى على أسس أخلاقية وحوارات ودية، إلى تبني استراتيجيات أخرى تفي بغرض الإطاحة بالطرف الآخر، وهذا ما يعني أن المتكلم قد يستعمل ظواهر تلفظّية من قبيل الشتائم، وذكر صفات ذات منزع قيميّ، حين تعوزه الوسائل الأخرى في التغلب على الآخر، وخاصة إذا كانت هذه الصفات تساير الواقع الخارجي لطرفي العملية السجالية، مما يضفي مشروعية على خطاب القائل وفق شرعية المكانة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

يشعر متلقي الشتائم أو الخطاب ذي الحمولة السلبية بأنه محاصر بواقع أليم، يعكس ما تَمَثّله المخاطب في خطابه، فيدرك أن الحمولة الدلالية لخطاب الآخر هو الاستهزاء به وبانتمائه، فيكون للاستفهام في هذه الحالة بعدا تداوليا هو السخرية التي تعتمد على عملية انتقاء الرذائل والنقائص المادية أو المعنوية، ويقصد من توظيفها في الخطاب الاستهانة، والتحقير، والتنبيه إلى النقائص، ومن أمثلة ذلك قول جرير يهجو الأخطل:

أَلَيْسَ أبو الأُخَيْطِلِ تغلبيّا فَبِئْسَ التغلبيُّ أبًا وخالا[30]

فسؤال جرير للأخطل في هذا السياق سؤال مغلق إلى حد كبير، فهو لا يحتاج إلى الإجابة بنعم أو لا فقط، بل هو لا يحتمل سوى جواب واحد وهو "نعم"؛ لأن والد الأخطل تغلبي، وهذا منطقي ما دام من قبيلة تغلب، 'فالإجابة ها هنا تؤكد الحكم الموجود في السؤال عند المُخاطب فلا يكون لإنكاره سبيل."[31] ومقصد الكلام أن والد الأخطل ينتمي إلى قبيلة هي دون القبائل العربية الإسلامية، كونها قبيلة مسيحية مفارقة في معتقداتها القبائل العربية الأخرى التي تعتز بإسلاميتها، فالمخاطب هنا حاصر المتلقي في منطقة ضيقة لا يستطيع تجاوزها.

كما قال في نقيضة أخرى قالها في الفرزدق، يهجوه في بنية الخِلقية:

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته صاعقة فاستدارا[32]

لم يكن جرير يسأل عن شيء من خلال هذا الاستفهام، وإنّما قصد أن أصل الفرزدق قرد قبل أن يتحول بفعل الصاعقة إلى إنسان، ولكنه إنسان منبوذ خِلقيا، فكلمة الفرزدق بذاتها تدل على ذلك. فمعناه الرغيف المفلطح وكأني بالشاعر يذهب مذهب دروين في بنظريته حول النشوء والتطور.

أسلوب السخرية هذا، وتجاوز قواعد التأدب يستعمل أيضا كوسيلة دفاعية، ما يعني أن الآخر يساير الأوّل في كل استراتيجياته الخطابية، لذلك يرد الفرزدق على جرير مستعملا أسلوب السخرية نفسه:

رأيت ابن المراغة حين ذكّى تحوّل غير لحيته حمارا[33]

فإذا تحول الفرزدق إلى قرد بفعل الصاعقة، فإن جرير أيضا تحول بفعل المسخ حمارا، غير أنه تميز عنه في أنه صاحب لحية. وهذا ما يدل على أنه من نسل الأحمرة، وهذا التشبيه لم يأت به الفرزدق إلاّ لمعرفته أن والد جرير صاحب أحمرة، فنفى عنه انتسابه إلى قبيلة بشرية ليجعل له نسبا جديدا وهي قبيلة "الأحمرة"، ويقول أيضا في نفس السياق:

يا ابن المراغة كيف تطلب دارما وأبوك بين حمارة وحمار؟

إن أداة الاستفهام" كيف" في هذا البيت الشعري لا يراد منها السؤال عن الكيفية، بل لنفي انتساب جرير إلى دارم، كونه ابن حمار وحمارة، وذلك على سبيل السخرية والتحقير وهذا ما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي.

يأتي الاستفهام في هذا السياق "للدلالة على ضآلة المسؤول عنه وصغر شأنه مع معرفة المتكلم أو السائل، (...) والعلاقة أن المحتقر من شأنه أن يُجهل لعدم

الاهتمام به فيسأل عنه، والاحتقار فيه إظهار حقارة المخاطب وإظهار اعتقاد ضغره."[34] ومن ذلك قول جرير يهجو الأخطل:

أيشتمني عبد الأراقم...؟ فما الذي تُجدي عليك الأراقم[35]

وعبد الأراقم في هذا البيت كناية عن الأخطل، لأنه ينتمي إلى حي من أحياء تغلب وهو الأراقم، فأشار إليه بالكناية دون التسمية زيادة في التحقير.

خلاصة البحث:

نخلص في نهاية هذا البحث أن خطاب النقائض خطاب سجالي بامتياز، فهو خطاب خلافي وعدواني يقوض خطاب الآخر ويعارضه، وهذا ما يسمح من وجهة تداولة بإنجاز أفعال لغوية إزدواجية (رفع الذات/تقزيم الآخر).

كما تجلت بلاغة الخطاب في مقدرة كل مساجل في الاحتجاج لقضيته ودحض القضية المناقضة لها، مسوغا ومستدلا بكل ما تمنحه اللغة من إمكانات، لبلوغ المقصد وهو التفوق على الذات الأخرى.

الهوامش:

1–عيسى عودة برهومة، ماهر أحمد مبيضين، الخطاب السجالي في رسائل علي ومعاوية.آلياته وتقنياته، مجلة دراسات، المجلّد 43، ملحق4، 2016، ص1847.

2 -Dominique Maingueneau, sémantique de la polémique, ed, L'âge d'homme, lausanne, suise, 1983, p11

3 - Shoshana FELMAN, le discours polémique (proposition préliminaire pour une théorie de la polémique), le Bestiaire dans la littérature francaise, edition : les belles lettres, paris, N31, 1979, p179.

4 -Charis Baldick, Oxford cousice Dictionary of Literary Terms, Oxford Univercity press, 2001, pp: 198-199. نقلا عن: معجب العدواني، ضياء الكعبي، الخطاب السجالي في الثقافة العربية، مقاربة تأويلية، ص11.

[5]– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، 2004، مادة سجل.

[6]– باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم مصطلحات تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمّادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008، ص426.

[7]– المصدر نفسه، ص427.

8 -Catherine Kerbrat orechioni, La polémique et ses définition, le discours polémique, 1980, p13.

[9]– محي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج1، دار الكتب العلمية، ص48.

[10] -Dominique garand, propositions méthodologique pour l'étude du polémique, in: états du polémique, édition Nota bene, Montréal, 1998, p215

11 – سعد الدين التفتازاني، مطول التلخيص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط3، 2013، ص409.

12 – محمد بن علي محمد الجرجاني، الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسين، د.ط، مكتبة الآداب، القاهرة، 199، ص88.

13 – ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

14 – التفتازاني، مطول التلخيص، ص409.

15 – أبو عبيدة معمر بن المثنى، كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص112.

16 – عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص99.

17 – عبد العزيز عتيق، علم المعاني، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص99.

18 – أبو عبيدة، كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق،ج2، ص112.

19– مسعود صحراوي، التداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ط1، دار الطليعة، بيروت، 2005، ص163.

20 – أبو عبيدة معمر بن المثنى، كتاب النقائض، ج2، ص175.

21 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

22 – المصدر نفسه، ج1، ص299.

23 – المصدر نفسه، ج1، ص148.

24 – المصدر نفسه، ص ص 293–296.

25– محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ج1، د.ت، مطبعة الصاوي، مصر، ص545.

26 – مطول التلخيص، ص309.

27 – ينظر: مطول التلخيص، ص309.

28 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

29 – أبو عبيدة، كتاب النقائض، ص332.

30– محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص415.

31 – أحمد يوسف الخطاب السجالي، ص219.

32 – أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، ج1، ص389.

33– أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، ج1، ص404.

34 – عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص100.

35 – أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، ص